٣ـ العالم: كيف خلق وكيف تطور؟

بقلم الاستاذ محمد مظهر سعيد
أستاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية أصول الدين

استعرضنا فى مقالنا السابق (١) أساطير الطبقة الثانية التى كان يقول بها أهل المدنيات القديمة، وذكرنا منها: مصر وبابل وآشور والصين واليابان والهند؛ ولم يبق من هذه الطبقة سوى أساطير الفرس القديمة «المجوسية»، والايرانية التى تفرعت منها، ثم فينيقيا.

الفرس:

تدور الأسطورة الفارسية القديمة حول فكرة الثور المقدس (أبو داد) الذى خلق منه (أهرمان) ـ إله الشر والظلام ـ الأرض بطينتها السوداء لسكنى البشر أهل الشر والسوء، و (أرمزد) ـ إله النور ـ الذى خلق النباتات وسائر الحيوان من جسده هو. وذلك أنه لما مات الثور ـ أى تجمدت الأرض وتبنت الطينة السوداء فى موضعها ـ قفز من عقده اليمنى بطريقة لايعلمها أحد (كما خرجت حواء من ضلع آدم) مخلوق عجيب الشكل اسمه (كاجومورز) فلم يرض أرواح الشر (الديفا) جنود (أهرمان) أن يبق هذا المخلوق العجيب حياً يفسد عليهم أعمالهم فتآمروا عليه، وقتلوه خلسة، وتركوا جثته معرضة لحرارة الشمس وضوئها أربعين عاماً امتصت فيها جثته جزئيات الشمس المنبعثة من أشعتها، وتجمدت هذه الجزئيات النورية واستحالت إلى بذرة نبتت منها شجرة الحياة أو العلم والمعرفة (ريباس)، وهنا خطر فى ذهن (أرمزد) أن يخلق نوعاً جديداً من الكائنات يوليه الأرض وما عليها ويفسد على جنود (أهرمان) تدبيرهم، فلم يجد أمامه غير شجرة الحياة تناولها بيد القدرة وخلق منها ذكراً وأنثى (مشيا ومشيانا)، وهما أول من خلق؛ واستغرق منه هذا العمل الشاق ستة أيام كاملة أدركه بعدها التعب فانقطع عن العمل فى اليوم السابع؛ وبذلك صار هذا اليوم عيداً يحتفل الناس به ويسمونه (جهان بار).

وتفرعت من هذه الأسطورة الخيالية الرائعة أساطير إيرانية أخرى تماثل قصة التوراة فى سفر الخروج لامتزاجها بالروح الدينية، ودخلها شىء من فلسفة المتأخرين، فارتقت نوعاً ما عن الأسطورة الفارسية القديمة، وإن ظلت محتفظة بجوهرها، وهى لاتزيد فى الواقع عن ما يأتى:

١ ــ «فى الأصل كانت روح الخير تسبح فى بحر لانهائى من النور وتتنقل فى كل مكان، وتحيط علماً بكل شىء، وكانت روح الشر الجاهلة تختفى فى الظلام، وكان لكل منهما مخلوقات

(١) راجع الجزء السابق من «المعرفة» ص ٥٦٦ .

تلائمها وتتبعها فى كل مكان، وظلت هذه الكائنات ٥٠٠٠ سنة تدور وتدور فى فلك لانهائى بغير جسد ، ثم اختلف الإلهان ـ روح الخير وروح الشر ـ على حكم العالم ، فاتفقا على أن يسود الشر العالم ٣٠٠٠ سنة ، ويظل قوياً متسلطاً ٦٠٠٠٠ سنة ، ويضمحل نفوذه بعدئذ بالتدريج ، وتهادنا على هذا الأمر ؛ ولكن لما انتهت مدة حكم الشر الأولى عز عليه أن يخلى الميدان ليسود الخير ، فاختلفا من جديد ، واضطربت الحال ٣٠٠٠ سنة أخرى ؛ وكان من نتيجة هذا الخلاف أن خلقت الملائكة ، والشمس ، والقمر ، وسائر المخلوقات المادية الصالحة لتكون جنوداً لإله الخير ، والشاطين ، والجن ، والعناصر الخبيثة لتكون بدورها جنداً لإله الشر ؛ تساجل الأولى الحرب، وستظل تقاتلها إلى آخر الزمان، وعندئذ فقط يتغلب الخير على الشر » .

وأنت ترى أن هذه الأسطورة تتميز عن الأسطورة الهندية بالنقط الآتية :

ا ـ عدم الاعتقاد فى أزلية المادة ، ووجودها منذ القدم .

ب ـ فكرة خلق الدنيا فى أربعة أدوار ، كل دور منها استغرق ٣٠٠٠ سنة .

حـ ـ الاعتقاد فى سيادة الشر فى هذا العالم ، متمثلا فى تطاحن الناس وتصارع العناصر إلى أن ينتهى هذا العالم الدنيوى ، وبعدئذ يسود الخير .

أما فكرة « النور » التى تستند إليها الأسطورة الفارسية ، فأرجح أنها مأخوذة من تقديس المصريين القدماء والبابليين والأشوريين للنور ، واتخاذه رمزاً لقوة الطبيعة والخير الذى يصيب الانسان من فلاحة الأرض وزرعها .

هنا تنتهى أساطير الطبقة الثانية ، وتبدأ الأساطير الفلسفية المتمثلة فى معتقدات فينيقيا واليونان ؛ ولكننا قبل التطرق إلى هذه الطبقة، لانجد بدّاً من ذكر أساطير أهل الشمال، اسكنديناوه والأرض الخضراء، وبلاد أمريكا الجنوبية البعيدة كالمكسيك وبيرو ، التى لا تربطها بأساطير الطبقة الثانية أية رابطة ، ما دام أهل هـذه البلاد لم يتصلوا ، ولم يتفرعوا عن أهل المدنيات القديمة المتمركزة فى آسيا الصغرى وما حولها ، مدللين بهذا على أحد أمرين :

ا ـ إما أن طبقات العالم كله القديمة التى عاشت فى فجر التاريخ ، والطبقات الأولية التى تعيش الآن على ظهر الأرض قد احتفظت بفكرة واحدة جوهرية اتخذوها نواة الأساطير بعد أن زادوا عليها صوراً جديدة توافق خيالهم وبيئتهم وظروفهم الخاصة .

ب ـ وإما أن طبيعة العقل البشرى أينما كان فى أى بقعة من بقاع الأرض، وكيفما كان أصله الذى تفرع عنه من هضبة البامير فى بلاد الفرس كسائر سكان أوروبا وآسيا (الهندو أوربيين) وسكان أمريكا واستراليا الأصليين المجهول الأصل، أو كانوا من حيث لونهم سوداً ، أو صفراً ،

أو حمرا ، أو بيضا ـ تحتم عليه أن يبدأ تفكيره عن العالم وخلقه وتكوينه بالصورة المتمثلة فى هذه الأساطير جميعها ، وهذا هو الرأى الذى نرتاح إليه .

فأنت تجد فى أشعار (الاسكنديناويين) القديمة فى كتابهم المشهور (فولاسبا) وصفا للدنيا المادية فى حالتها الأولية ، كأنها هوة بعيدة الغور فارغة الجوف لا شىء فيها ، تسمى (جينونجاسجات) أى الكأس ، أو الخليج ؛ وفى الجزء الشمالى منها ظلام وضباب كثيف ، وثلج متجمد فى وسطه عين ماء ساخنة تنفجر منها الأنهار الاثنا عشر ، والجزء الجنوبى تغمره أشعة قوية آتية من خرط النور (ويلاحظ القارىء هنا أن هذا بالضبط هو الوصف الجغرافى لبلاد اسكنديناوه) ؛ وفجأة ـ ولغير ما سبب ـ هبت ريح صرصر عاتية اكتسحت أمامها الثلوج وأذابتها فجرت مياها ظهر فى وسطها مخلوق هائل الحجم فى هيئة الانسان ، وانكشفت الأرض عن بقرة الوعود تجرى من أندائها أنهار اللبن لتغذى هـذا المخلوق ، وأخذت البقرة تلعق الصخور وتتغذى بما يوانيها من ملح وبرد ، وفى ثلاثة أيام أنجبت مخلوقا اسمه (بور) أو (بورى) أرقى من الأول بكثير ؛ وهنا تتطور الأسطورة فجأة ، ويدخلها شىء من الخيال الغريب ، يدل على التخبط فى الرأى وعدم الاستقرار على فكرة معينة ، فتقول إن (بور) هذا تزوج بابنة الماردة (جويين) ، ونحن لا نعلم من أين أتت هذه الماردة فأنجبت له ثلاثة : (أودين) ، و (فيلى) و (فى) ؛ ولما وقع بصر هؤلاء على المخلوق الأول لم يعجبهم مرآه فتآمروا عليه وقتلوه وألقوا بجثته فى وسط الخليج ، متخذين الأرض من لحمه ، والمحيط والأنهار من وجهه ؛ والجبال من عظامه ؛ والصخور الكبيرة من أسنانه وعظام فكيه ؛ والأشجار من شعره ، والسحاب من مخه ؛ ومسكن الانسان من حاجبيه ، والسماء من جمجمته ثبتوها على الأرض بأربعة أعمدة يحمل كل واحد منها قزما صغيرا يرمز إلى جهة من الجهات الأربع الأصلية : الشمال ، والجنوب ، والشرق ، والغرب ؛ وثبتوا الشرر الذى يتطاير من عينيه فى منطقة النور وسط القبة الزرقاء ، فصارت شمسا ونجوما تضىء للناس على الأرض .

وهناك رواية أخرى أكثر غرابة من هذه الرواية ، وتتلخص فى أن ثلاثة من آلهة الخير كانوا يسيرون على شاطىء البحر ، فاسترعى نظرهم شجرتان ، وعلى التحقيق غصنان ، يطفوان على سطح الماء ، ولا حول لهم ولا قوة ، فأشفق عليهما (أودين) ونفخ فيهما الحياة ، وتبى (هونير) بالروح والحركة ، وختم (بودو) بالنطق والجمال والإحساس ، فانقلب أحدهما ذكرا سموه (آسكى) ، أى الرماد ، والآخر أنثى سموها (أمبلا) ومنهما نشأ الانسان وبنوه ؛ ولعلك ترى من هذا أوجه التشابه بين هذه الأسطورة والأسطورة الهندية فى الجزء الخاص بالجسد والبقرة ، وإنه فى الحق لشبه غريب لا يترك مجالا للشك .

أما أسطورة أهل (جرينلاندة) والجزائر المجاورة لها فى المحيط المتجمد الشمالى ، فتقول إن الذى خلق الأرض هو الأرنب الأكبر (ميشابو) ، وذلك لأنه كان يلهو بوضع بعض الحيوانات الغريبة على قطع من الخشب ، ويدفع بها إلى بحر لا شاطىء له ، ويقذف بهذه الحيوانات

الواحد تلو الآخر ليغطس حتى القاع – أى الأرض – ، وقذف بالفعل أربعة اختفى ثلاثة منهم، وظهر الرابع وفى يده قبضة من الرمل أخذها منه وصنعها وشكلها فصارت جزيرة كبيرة (أمريكا)، ومن جثث الموتى صنع بنى الانسان ، ويقول بعض العلماء : إن (ميكابو) هذا ليس بأرنب ، وإنما هو رمز للواحد الأبيض الأكبر المتمثل فى نور الفجر .

وهذه الأسطورة هى فى الواقع نفس الأسطورة القديمة موضوعة بطريقة تناسب عقلية أهل الجزائر الباردة المنقطعة عن العالم فى بحر متجمد .

أما المكسيك القدماء فقد قسموا مدة خلق الدنيا إلى خمسة أدوار : خلقت الأرض فى الأول ، والنار فى الثانى ، والهواء فى الثالث ، والماء فى الرابع ، ثم الانسان ، وكان كل دور من هذه الأدوار ينتهى بفاجعة طبيعية كما انتهى دور الانسان بالطوفان ، وعجيب أن تتفق هذه الأسطورة ، ومذهب العناصر الأربعة اليونانى ، وفكرة اليهود والفرس عن الطوفان ، على بعد الشقة بين المكسيك وأهل هذه البلاد .

ولسنا فى حاجة إلى ذكر أسطورة أهل (بيرو) لأنها صورة أخرى من الأسطورة المصرية القديمة التى تبدأ بتغلب الشمس على باقى الآلهة . ؟

محمد مظهر سعيد

وداع

بردت فى فيك هاتيك القبل — وتراءت لى علامات الملل
سوف أمضى حاملا قلبى معى — ولئن حُلّت فقلبى لم يحل
إنه قلبٌ غريب متْعَب — لم يُرْوَ العمرَ إلا بالعَلَل (١)
كم تلظّى فى الليالى خافقاً — وتردى بين يأس وأمل
يشتهى ظلا لطرف ساحر — فيميل الظلُّ عنه أين حل
ولقد أسلوكِ يوماً هكذا — كل شىء طبعه أن يضمحل
وتعودين بذكراكِ إلى من — أخلص الود ولكن قد رحل
كبرياءٌ ملءُ نفسى جامحٌ — ودلالٌ منك يَطغى ويُذل

محمد عبده عزام

(١) العلل والعلالة كالنهل والنهالة وهو القليل من الماء .